

النقد الاجتماعي

ثمة علاقة وثيقة بين الأدب والمجتمع، إذ أقر بها الفلاسفة والعلماء منذ القديم في ظل نظرية المحاكاة، نظرية الانعكاس وشتى الآراء والأفكار المطروحة في هذا المجال، ولم تكد تظهر نظرية الجدلية الماركسية حتى تأسس على بنيانها، المنهج الاجتماعي للأدب؛ أحد المناهج الرئيسية في الدراسات الأدبية والنقدية، وهو منهج يربط بين الأدب والمجتمع في مختلف المستويات، ويدرس ويحلل العلاقة بين المجتمع والأدب باعتباره انعكاساً للحياة.

مفهوم وأصوله:

المنهج الاجتماعي من المناهج الأساسية في الدراسات الأدبية والنقدية، وقد تولد هذا المنهج من المنهج التاريخي، بمعنى أن المنطلق التاريخي كان هو التأسيس الطبيعي للمنطلق الاجتماعي عبر محوري الزمان والمكان. ولذلك قال بعضهم: إن هذا المنهج هو جزء من المنهج التاريخي. والذين فرقوا بين المنهجين قالوا: إن الدرس الأدبي إذا تناول النصوص القديمة كان تاريخياً، وإذا توجه إلى درس النصوص الحديثة كان نقداً اجتماعياً

وهو منهج يربط بين الأدب والمجتمع بطبقاته المختلفة، فيكون الأدب ممثلاً للحياة على المستوى الجماعي لا الفردي؛ باعتبار أن المجتمع هو المنتج الفعلي للأعمال الإبداعية، فالقارئ حاضر في ذهن الأديب وهو وسيلته وغايته في آن واحد.

إن بدايات النقد الاجتماعي تعود إلى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر عاد بها أدباء فرنسيون كانوا قد هاجروا إلى ألمانيا وانكلترا أمثال: " مدام ستال " التي أصدرت في عام 1800م كتاباً: (عن الأدب من حيث علاقاته بالنظم الاجتماعية)

"وشاتو بريان" الذي أصدر عام 1802 م كتاباً: (عبقرية المسيحية). فقد كانا بداية لخط من الدارسين والنقاد يضعون المجتمع نصب أعينهم حين يزاولون النقد، ومن أولئك " قلمان ... ثم جاء سنت - بيف 1804-1869م الذي احتفل بالمجتمع وبظروف الأديب.

ويمكن عدّ التحليلات التي حوّاها كتاب الناقد "هيوليت تين" في كتابه "تاريخ الأدب وتحليله" عام 1863م، أحد أبرز التطبيقات الممثلة للمنهج الاجتماعي في دراسة الأدب وتحليله.

المنهج الاجتماعي في النقد الأوربي الحديث :

كان للفكر المادي الماركسي أثر في تطور المنهج الاجتماعي، وإكسابه إطاراً منهجياً وشكلاً فكرياً ناضجاً، ومن المتقرر في الفلسفة الماركسية أن المجتمع يتكون من بنيتين: دنيا: يمثلها النتاج المادي المتجلي في البنية الاقتصادية، وعليا: تتمثل في النظم الثقافية والفكرية والسياسية المتولدة عن البنية الأساسية الأولى، وأن أي تغير في قوى الإنتاج المادية لابد أن يحدث تغيراً في العلاقات والنظم الفكرية.

وقد عملت الماركسية مع الواقعية جنباً إلى جنب في تعميق الاتجاه الذي يدعو إلى التلازم بين التطور الاجتماعي والازدهار الأدبي؛ مما أسهم في ازدهار "علم الاجتماع" بتنوعاته المختلفة، كان من بينها علم نشأ قبل منتصف القرن العشرين أطلق عليه: علم "اجتماع الأدب" أو "سيولوجيا الأدب"، وقد تأثر هذا العلم بالتطورات التي حدثت في الأدب من جانب، وما حدث في مناهج علم الاجتماع من جانب آخر.

من رواد المنهج الاجتماعي:

1. فريدريك هيغل 1770 – 1830
2. كارل ماركس 1818 – 1883
3. فريدريك انجلز 1820 – 1895
4. جورج لوكاتش 1885 – 1971

اتجاهات المنهج الاجتماعي:

الاتجاه الأول: الكمي:

وهو تيار تجريبي يستفيد من التقنيات التحليلية في مناهج الدراسات الاجتماعية، مثل الإحصائيات والبيانات وتفسير الظواهر انطلاقاً من قاعدة بينها الدارس طبقاً لمناهج دقيقة ثم يستخلص منها المعلومات التي تهمة.

ويرى هذا الاتجاه أن الأدب جزء من الحركة الثقافية، وأن تحليل الأدب يقتضي تجميع أكبر عدد من البيانات الدقيقة عن الأعمال الأدبية، وذلك لاستخلاص نتائج مهمة تكشف لنا عن حركة الأدب في المجتمع.

ومن رواد هذه المدرسة "سكارييه"، ناقد فرنسي له كتاب في علم اجتماع الأدب ويغفل هذا الاتجاه الطابع النوعي للأعمال الأدبية، فتدرس الأعمال الأدبية على أساس أنها ظواهر اجتماعية تُستخدم فيها لغة الأرقام، فالذي يحكم هذه الدراسات الأساس الكمي لا الكيفي؛ فلا تملك هذه المدرسة رؤيةً جمالية في الحكم على العمل الأدبي.

ولكن ما لبث هذا المنظور أن تطور وارتبط بشكلٍ ما بالجانب الجمالي، نجد ذلك بارزاً في "حدود حرية التعبير" للباحثة السويدية "مارينا ستاغ"، فقد وظفت هذه الدراسة التقنيات الإحصائية والتجريبية في علم اجتماع الأدب بشكل مختلف عن السابق... وهي تتخذ منظوراً من منطلقات منهجية حيث ترى أن الإبداع القصصي هو أكثر أشكال الإبداع ارتباطاً بحركة المجتمع، وأنه غالباً ما يصطدم بالمنوعات الاجتماعية وهي المنوعات السياسية، والدينية، والأخلاقية، أما المنطلق الثاني المنهجي للدراسة فيتمثل في رؤية الكاتبة للحرية بأنها قرينة الإبداع، وأن مؤشر قمع الحرية هو أهم مؤشر لتدخل المجتمع في تكيف الإنتاج الأدبي..

أما النقد الذي يوجه لهذا الاتجاه فبالإضافة إلى إغفاله للجانب النوعي للأعمال الأدبية —

كما وضعنا سابقاً — فإنه يكتفي برصد الظواهر ولا يتعمق في إمكانية تفسيرها وربطها

ببعضها، بل ويقوم التوازي بين ظواهر غير متجانسة أصلاً؛ لأن الأدب إنتاج تخيلي إبداعي يغير نوعياً طبيعة الحياة الخارجية، وهذه نقطة ضعف جوهرية تعيب دراسات علم اجتماع الأدب وتجعل نتائج عملها مجرد إضافة لمجموعة من البيانات والمعلومات التي تخدم علم الاجتماع ودارسيه أكثر من نقاد الأدب والمتخصصين فيه.

الاتجاه الثاني: المدرسة الجدلية :

نسبة إلى "هيجل" (1770 - 1830م) ثم ماركس (1818 - 1883 م) من بعده، ورأيهما في العلاقة بين البنى التحتية والبنى الفوقية في الإنتاج الأدبي والإنتاج الثقافي وهذه العلاقة متبادلة ومتفاعلة مما يجعلها علاقة جدلية.

وقد برز "جورج لوكاش" كمنظر لهذا الاتجاه عندما درس وحل العلاقة بين الأدب والمجتمع باعتباره انعكاساً وتمثيلاً للحياة، وقدم دراسات ربط فيها بين نشأة الجنس الأدبي وازدهاره، وبين طبيعة الحياة الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما تسمى بـ"سيولوجيا الأجناس الأدبية"، تناول فيها طبيعة ونشأة الرواية المقترنة بنشأة حركة الرأسمالية العالمية وصعود البرجوازية الغربية.

ثم جاء بعده "لوسيان جولدمان" الذي ارتكز على مبادئ لوكاش وطورها حتى تبني اتجاهاً يطلق عليه "علم اجتماع الإبداع الأدبي"، حاول فيه الاقتراب من الجانب الكيفي على عكس اتجاه "سكاربيه" الكمي.

ثم حدث تطور في مناهج النقد الأدبي مما أدى إلى نشوء علم جديد هو "علم اجتماع النص"، يعتمد على اللغة باعتبارها الوسيط الفعلي بين الأدب والحياة، فهي مركز التحليل النقدي في الأعمال الأدبية، فاتخاذ اللغة منطقة للبحث النقدي في علم اجتماع النص الأدبي هو الوسيلة لتفادي الهوة النوعية بين الظواهر المختلفة.

المنهج الاجتماعي في النقد العربي:

نجد في تراثنا النقدي القديم نقداً للمجتمع وسلوكياته ككتاب "البخلاء" للجاحظ، والحرص على الربط بين المعنى الشريف واللفظ الشريف الذي نجده عند بشر بن المعتمر، وبعض الملاحظات المنتشرة في كتب النقد القديم التي تحث على الربط بين المستوى التعبيري ومستوى المتلقين.

أما في النقد الحديث، فلم يكن لهذا المنهج رواد بارزون مقتنعون به، يربطون بين الإنتاج المادي والإنتاج الأدبي كما يوجد في روسيا، ولكننا نجد بعض الدعوات إلى الاهتمام بالاتجاه الاجتماعي في النقد الأدبي عند شبلي شميل، وسلامة موسى، وعمر فاخوري، وقد اقترب هذا المنهج من المدرسة الجدلية عند محمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس، ولويس عوض، حتى كان تجليه في النقد الأيدلوجي عند محمد مندور.

نقد المنهج الاجتماعي:

للمنهج الاجتماعي جوانب تقصير عديدة نحاول إيجازها في التالي:

1. إصرار أصحاب المنهج الاجتماعي على رؤية الأدب على أنه انعكاس للظروف الاجتماعية للأديب وهذا الرأي صحيح إلى حد ما، فليس الأديب شيئاً منعزلاً عن مجتمعه، لكنه أيضاً يحتاج لأن يعبر عن أشياء أخرى مختلفة غير هموم مجتمعه.
2. سيطرت التوجهات المادية على كل شيء في هذا المنهج، فالبنية الدنية المادية — في نظر الاتجاه الماركسي — تتحكم في البنية العليا التي يعتبر الأدب جزء منها، فتزول حرية الأديب لأنها مبنية على سيطرة المادة، ومن جانب آخر يغفل هذا المنهج جانب الغيبيات وأثرها الفاعل في توجيه الأدباء من خلال الخلوص لله سبحانه واستحضار خشيته في القول والفعل، وهو يتصل بالمرجعية الدينية كجزء من الحكم النقدي.
3. يهتم هذا المنهج بالأعمال النثرية كالقصص والمسرحيات، ويركز النقاد على شخصية البطل، وإظهار تفوقها على الواقع مما يؤدي إلى التزييف نتيجة الإفراط في التفاؤل، فتصوير البطل يجب أن يكون من خلال الواقع وتمثل الجوهر الحقيقي لواقع الحياة.

4. يغلب على أصحاب هذا الاتجاه إفراطهم في الاهتمام بمضمون العمل الأدبي على

حساب الشكل، فجاء "علم اجتماع النص" كتعويض لهذا النقص حيث يهتم باللغة باعتبارها

الوسيط بين الحياة والأدب، وهي أداة فهم المبدع وإبداعه.

خصائص المنهج الاجتماعي.

- لا يعلمنا النقد الاجتماعي قراءة النصوص فقط بل يعيننا ويفتح أعيننا على قراءة حياتنا وعلاقتنا بالعالم من حولنا
- لم يعد في خضم هذا المنهج المعنى هو الموجود فقط أو المحصور في النصوص وإنما جعل مكانا للقارئ من خلال إبراز ذاته الاجتماعية.
- هو منهج حمى النص من التلاشي والتحول إلى مجرد إضافة لسلطة معرفية أخرى.
- القراءة النقدية الاجتماعية قراءة للمسيرة والتقدم بوصفهما حاملتي التغيرات الإيجابية (الثورة الفرنسية مثلا ما زالت نتائجها مستمرة إلى يومنا).
- وظيفة الكتابة الكشف والتعبير عن التاريخانية الاجتماعية باعتبارها حقل المسائل المتكررة
- تعد القراءة النقدية الاجتماعية ابتكارا وبحثا وتأويلا لأنها تشكل تركيبا جديدا بين البنى التحتية والفوقية وبين الفرد والعالم وبين الأشياء المتوارثة والمبتكرة.
- إنها نقد ودعوة في آن واحد.